القديس يوحنا فم الذهب

وثورة انطاكية

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

٢٠

وفي اليوم الثاني شاع في المدينة خبر تداولته الرواة وملأ الاسماع، كان فحواه ان البُرُد الموجهة الى الملك حدث لهم بعض العوائق في الطريق، فاكرهوا على ترك خيلهم والركوب في العجلات العمومية[1]. وللحال اظهر العزم على السفر الشيخ الجليل فلابيانوس، وهو اخو ثاثين، وسرى بقطع من الليل تاركاً اخته في شدة المرض، وهازئاً بشدائد السفر، عازماً على الوصول قبل الرسل وقبل اشتداد الذنب. وفي اليوم الثاني من سفر الاسقف امّ يوحنا الكنيسة، وجعل يبشر اولاده بسفر راعيهم الذي كان ثودوسيوس يجله ويعظمه من اجل فضائله فقال: «اني حين ارى هذا الكرسي واشاهده فارغاً محروماً صاحبه الذي كان يعلمنا ويرشدنا افرح وابكي. ابكي لاني لا ارى ابانا هنا، وافرح بسفره، لعله يخلصنا وينقذ هذه المدينة العظيمة من غضب الملك ... لقد سافر مستعدًا لبذل نفسه من اجلنا كلنا ... ذهب كالشاب لان كبر همته اعاره اجنحة.»[2]

وما فتئ بعد سفر الاسقف يشجع اولاده ويقوّي جأشهم بقوله: «ان سرأى هذا الرجل المكرّم سيؤثر في ملك العالم ... فيخاطبه كما خاطب موسى الله: ان غفرت لهم خطيئتهم والّا فامحني من كتابك[3]. ويحثه على الاقتداء بربه، ويذكره بمثل العبد صاحب العشرة آلاف وزنة وصاحب المئة الدينار[4] ... ويقول الرب: اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن اساء الينا[5].

١) فم الذهب: المجلد الثاني ٧٥ و ٧٦ ٢) ٧٥ و ٧١ ٣) خروج ٣٢: ٣٢
٤) مت ١٨: ٤ ٥) مت ٦: ٧

وبقوله له: تفكر في شرف هذه المدينة... فيها اتباع يسوع سموا مسيحيين... اكرم يسوع المسيح وابق على المدينة التي نطقت اولاً بهذا الاسم الجميل العذب وبها اقام الرسل والقديسون ... اذكر كلامك الذي وجهته الى المدائن باجمعها : ليتني استطيع بعث الموتى ! فالى هذه العواطف نلتجئ وبقولك نستغيث . ان مجد الملوك يتوقف على قهر الغضب اكثر من قهر الاعداء . انتصاراتك يشاركك فيها قوادك وجنودك ، واما غلبتك على نفسك فرجعها اليك وحدك ، اذ ما من احد يشاطرك شرف حلمك . لقد دوخت البرابرة فدوخ كبرياء الرتبة العليا ، فيتعلم غير المؤمنين ان كل سلطة تُلجم بلجام المسيح . مجّد ربك بتجاوزك عن عبد مثلك.»[1] على ان همة الخطيب كانت بكليتها منصرفة الى تحريك عواطف الشعب وحمله على الثقة بالله عز وجل ، قال: «اذا كان الله طلب عشرة ابرار ليعفو عن شعب اثيم ، فهنا عندنا لا عشرة ولا عشرون ولا اربعون بل جمّ كثير ممن يعبدون الله بنشاط وحسن همة . فكيف اذن لا نؤمل ؟ اني اسمع البعض يقولون : غضب الملوك يشبه زماجر الاسود . ولكن الله قادر على تحويل الاسود الى حملان.»[2]

وكان الشعب الانطاكي ينصت لكلام يوحنا بلذة وانبساط ويعيره اذناً صاغية فيتعزى عن شدائده وبلاياه ، ويتقلب والثقة ملء جوانحه ثم يعود اليه في اليوم الثاني ، ويستمع الى كلامه كالسابق. فكسدت حينئذٍ اسواق الملاعب والملاهي ، وأقفلت الحمامات ، وكثر الزحام في الكنيسة[3] ، وبقي يوحنا لا يفارق المكان المقدس تارة ينفي الاشاعات الكاذبة ، وطوراً يشجع ، وحيناً يعد بالعفو ، ووقتاً يوبخ.

اما الاسقف فلابيانوس فمع ما بذل من الجهد في السير فلم يستطع الوصول الى القسطنطينية قبل شيوع خبر الفتنة . ولما نُمي الى الملك خبرها تبدل الضياء في وجهه بالظلام ، واستشاط غيظاً ، ووطن النفس على حرق انطاكية ، واطلاق السيف في اهلها قتلاً[4] ، وارسل من قبله رسولين اختارهما من بين قواده

---

١) ٧٦ ٢) ٢٧ ٣) ٢٥ و ٦١ ٤) ١٤١ و ١٧٥

المحنكين ، واوعز اليهما ان يعاقبا المدينة المتمردة باقفال الملعب والحمامات وبيوت اللهو ، وتجريدها من مزاياها الخاصة ومن لقب « عاصمة » ، ويجعلاها خاضعة للودوقية ، ويحبسا عنها توزيع الطعام.

وكان بين هيليكوس ، احد الرسولين ، وبين القديس غريغوريوس النزيانزي ولاء واخاء . سار الرسولان من وقتهما من القسطنطينية حتى بلغا عاصمة الشرق فالقى وصولهما الذعر في القلوب ، وانتشرت القالات والاراجيف[1] ، وتبسط الجند وقتئذ في ما شاؤوا من نهب وسلب وحرق ، وشاع ان العساكر آخذة في الزحف على المدينة لتخريبها ، فاوجد هذا القال والقيل الوالي الوثني الى دخول الكنيسة . فدخل وخطب في الشعب يوم انتصاف الصوم وسكّن روعته. وفي تلك الاثناء كان يوحنا مصاباً بوعكة ملازماً البيت[2]. وما بلغه وصول رسولي الملك حتى هرع في اليوم الثاني الى الكنيسة وطفق يقول : « اني اثنيت على حضور الوالي الذي اتى وعزاكم واحيا فيكم مائت الامل ، وذلك لمّا رأى اضطراب المدينة والاستعداد للفرار . ولكني انفضح خجلاً اذ انكم بعد كل الخطب التي سمعتموها من فوق هذا المنبر تحتاجون الى معزّ ايضاً. فلما سمعت ان الوالي اتى ليهدئ روعكم ويلومكم على خوفكم الذي وقع في غير اوانه ، وددت لو ساخت الارض بي.»[3]

ولما وصل الرسولان اعلنا تجريد المدينة من ميزاتها ، واخذا يقبضان على المتهمين ويحبسانهم ، فامتلأت السجون وكادت تضيق ذرعاً بالسجناء ، وعيّنا قضاة من الجيش يقضون على المجرمين بلا مراجعة. وبينما هما ذاهبان ذات يوم الى مجلس القضاء راكبين فرسيهما ، احاط بهما على حين غرة اناس ذوو وجوه شاحبة ، والوان مصفرة ، واجسام ناحلة من طول القيام وكثرة الصيام . من كانوا يا ترى ؟ النساك . فانهم ما سمعوا ما حلّ بانطاكية حتى خرجوا من كهوفهم وصوامعهم ، وطاروا الى المدينة يسألون رسولي الملك العفو عن المجرمين وكان فيهم شيخ جليل عليه أثر البؤس والمسكنة ، لابس ما تلدّم من الثياب.

---

١) ١٨١ و ٢١٤ ٢) ١٨٨ والعظة ١٩ ٣) ١٦١

فهذا تمسك باذيال الرسولين وامرهما بالنزول . فهما بضربه . ولكنهما سمعا في الحال صرخة ردّدت صدى صوته فتراجلا عن فرسيهما واهويا على قدميه . فهذا الناسك كان مقدونيوس الذي اشتهر في بلاد المشرق بزهده وصومه وصلاتـه واقتصاره من الطعـام على طحين الشعير مَدوفاً بالمـاء . ولكنه رفض اكرام الرسولين له وقال لهما : « اذهبا واحملا هذه النصيحة لمولاكما . قولا له: انت ملك ، ولكنك انسان . انظر الى طبيعتك ، لا الى رتبتك . انت انسان مسلط على بشر مثلك مطبوعين على صورة الله . خف من غضب الخالق واياك ان تلاشي صورته . انك غضبت لكسر تماثيل من نحاس ، افلا يغضب على كسر التماثيل الحية ؟ تماثيل النحاس تُصلح وتُرَمّ ومن المثال الواحد تصنع تماثيل عديدة ، ولكن اذا قتلت البشر كيف تصلح هذه الخسارة ؟ أتستطيع ان تقيم المفقودين وتردّ الانفس الى الاجساد العادمة الحياة . »[1]

فاثّر هذا الكلام في نفس الرسولين ، ووعدا الناسك القديس رفع هذه الرقيمة الى الملك . ولما دخلا دار القضاء الفيا الاساقفة والقسيسين ، وفي مقدمتهم فم الذهب ، واقفين عند الباب ، فلم يفسحوا لهما في الدخول وقالوا : لسنا نمكنكما من الدخول ، وان ابيتما الّا استعمال الشدّة فدوسا على جثثنا اولاً ثم ادخلا . واخذوا يقبلون ارجلهما مرة ، ومرة يوجنونهما[2] ، ولشدّة الالحاح اضطرّا الى النزول على رغبة الاساقفة والكهنة ، فبادر الجميع الى شكرهما وتقبيل ايديهما والاشادة بالدعاء لهما .

وكان هنالك امرأة مكشوفة الرأس ، مشعثة الشعر ، فهذه تعلقت بلجام فرس هيليكوس ودخلت دار الولاية . وما كادت ترى ولدها مقيداً ، حتى طارت اليه وتزعته من الحرّاس وجرّتـه الى امام نائب الملك هيليكوس ، وشرعت تبكي وتستحلفه ان يعفو عن ولدها وحيدها وعكاز شيخوختها ويشفق عليها بحرمة امه ، ثم ناشدته ان يقتلها او يردّ لها ولدها[3] .

ومن بعد ذلك تأهب الرسولان للرجوع على اعقابهما لطلب العفو عن المدينة ،

(١ ١٧٣ (٢ ١٧٥ (٣ ١٧٣

واراد النساك اللحاق بهما. ولكنهما اقناهم بتقديم عريضة الى القيصر فكُتبت العريضة وحملها سزاريوس وتوجه للحال الى القسطنطينية . وبقي هيليكوس يسكن جأش الانطاكيين وينفي مخاوفهم . وفي تلك الأثناء نُقل المعتقلون من سجونهم وأودعوا بناء رحباً ذا اروقة وحدائق ، وأذن لاهلهم في زيارتهم ومحادثتهم ، وتغيرت الاحوال وانقلب الحزن فرحاً ، والنوح ضحكاً ، والخوف امناً ، واستأنف السكان طربهم وفرحهم كالسابق . فحاك ذلك في صدر القديس فأقبل يوبخهم وينعنفهم قائلاً : « ان حكم الملك ما زال مجهولاً ، وحكام المدينة ما زالوا في القيود ، والسكان مع ذلك يخُون الى النهر للاستحمام ، ويستسلمون الى المآكل والمشارب والاشر والبطر والرقص والزفن مع النساء . فكيف اسامحهم ، وكيف اعذرهم ؟ »[1]

وبينما كان الاسقف فلابينوس في القسطنطينية يحاول الاذن في الدخول على الملك ، والملك يمانعه ، وصل سزاريوس ودخل على ثودوسيوس في ساعة ما كان ينتظرها وقد طوى المسافة القائمة بين العاصي والبسفور في بتة ايام . ثم قص عليه الحوادث ، وعرّفه جلية الخبر ، وما جرى من شدة الحكام ومخاوف السكان ، ووساطة النساك والرهبان ، وتوبيخ الاساقفة والقسان ، وقدّم له العريضة ، وجثا امامه يسترحمه على المدينة المتمردة ، وانضم اليه وفود البلدان. وحينئذٍ دخل فلابينوس ووقف بعيداً صامتاً منكساً رأسه حياء وخجلاً . فدنا الملك منه وقد تأثر ، وذكّره بالآلاء والنعم التي ازلفها الى مدينته ، والجميل الذي ساقه اليها ، وكيف قابلت صنيعته ، وانكرت جميله ، وجحدت احسانه. فرفع الاسقف رأسه المكلل ببياض الشيخوخة وامارات القداسة ، ونطق يتكلم ، وآثار الحزن بادية على وجهه . وما انتهى من خطابه الطويل حتى ظهر التأثر على وجه الملك فقال : « لا عجب اذا عفونا نحن البشر عن بشر اسخطونا ، بينما نرى رب العالم نزل الى الارض وصار عبداً من اجلنا ، واحتمل عذاب الصلب من صنائعه ، وصلى لابيه من اجل معذبيه ، وقال : يا ابتِ

---

(١) ١٨٧

اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يعملون.»[1]

ثم اوعز الى فلابينوس بالسفر ليبشر اولاده بالعفو ، وقال: «اني عالم انهم فريسة للقلق ، فاسرع وعزّهم ؛ انهم متى رأوا قائدهم ينسون آلامهم.»[2] ولما الحّ الاسقف على الملك ورغب اليه في ارسال ابنه الى انطاكية قال: «صلِ لله لتزول العوائق وتخف الحرب فاذهب انا نفسي واعزّيكم.»[3] وللحال سيّر فلابينوس البُرُد[4] فبلغت اوامر ثودوسيوس بالعفو يوم سبت النور ، فجمع هيليكوس المعتقلين سحرًا وبشرهم بالعفو ، وقرأ عليهم امر الملك فانتشر الخبر باسرع من لمحة الطرف ، وتطايرت البشائر فنضرت لها الوجوه ، وضحكت القلوب ، وعمّ الفرح والسرور ، وفُتحت الحمامات ، وزُيّنت الساحة العمومية بالازهار ، وسُرّح السجناء ، وانطلقت الالسن بالمدح ، واجهرت بالثناء الطيب على ثودوسيوس وفلابينوس وسزاريوس ، وهتفوا باسمائهم طويلًا . ولمّا وصل الاسقف لاقاه الشعب باكرام واحترام ، اجلال واعظام . وكان يوم وصوله يوم هناء وفرح وسرور لا مثال له.

وفي ٢٥ نيسان ، يوم عيد القيامة ، وقف القديس فم الذهب ، وشكر الله على نعمائه وقال: «تبارك الله الذي اذن لنا في الاحتفال بهذا العيد المقدس معكم في اتمّ الفرح ، اذ ردّ الراعي الى رعيته ، والقائد الى عسكره ، والحبر الى كهنته . تبارك الله الذي منّ علينا واعطانا فوق ما طلبنا وأملنا . . . فلنشكره متعجبين من قدرته وجوده وحكمته وعنايته بديانتنا[5] . ثم قال : ليخزَ الوثنيون بل بالاحرى ليفهموا ويتعلموا من الملك والحبر حكمة شريعتنا الالهية.»[6]

فالفضل في نجاة انطاكية من سيف الموت المصلت ، وعقاب الملك ، واستعادتها ميزاتها راجع الى الدين المسيحي ورجاله ، ولاسيما القديس يوحنا فم الذهب الذي كان مرشد الشعب الانطاكي ، ومعلمه ، ومعزّيه ، ودلياله ، وزعيمه ، واباه ، وامه.

---

١) ٢٢٢ ٢) ٢٢٢ ٣) ٢٢٢
٤) ٢٢٢ ٥) ٢١٣ و٢١٤ ٦) ٢٢٢

الاخت مسيحية علوان

الراهبة اللبنانية

١٨٤٤ - ١٩١٥